تحليل الخطاب (Analyse du discours)

قد يصعب على الدارس أن يحصر تاريخ تحليل الخطاب بسبب تطور الخلفيات النظرية، واختلاف الإجراءات المنهاجية بين شتى أنواع المقاربات التي تتخذ الخطاب موضوعا للدراسة. إن مصطلح تحليل الخطاب نشأ أصلا مع ظهور مقال " هاريس " (**Harris**) الذي نشر عام 1952 حيث أشار من خلاله إلى تمدد الإجراءات التوزيعية لبعض وحدات الجملة. وتعود جذور مصطلح تحليل الخطاب إلى التمييز الذي وضعه دو سوسير (**DeSaussure**)، بين اللسان والكلام، إلا أنه اعتبر الكلام نشاطا فرديا لا يمكن دراسته دراسة موضوعية دقيقة. لكن تأثير " الشكلانيين الروس " الذي أدى إلى تأسيس جديد للتحليل الأدبي، وعمل " مدرسة جنيف "، صمدا إلى غاية الخمسينات حيث بدأ يظهر تيار يهتم بالكلام، الذي عارض به الوظيفة التبليغية الأساسية لدراسة اللسان، بوظيفة أخرى هي الوظيفة التعبيرية(ظواهر انفعالية أو تأثيرية، ذاتية، فردية). ويهتم هذا التيار الجديد أيضا بدراسة الملفوظات التي تتعدى الجملة، وكل ما يتعلق بالتلفظ كذلك.

لكن في الحقيقة، بدأت ملامح الاهتمام بتحليل الخطاب تتضح مع بداية الستينات، حيث برزت عدة محاولات تحث على التفكير والتدبر في بعض خصائص النص/الخطاب على نحو ما فعل " قومبرز" و" هيمس " (**Gumperz et Hymes**) في مؤلفهما " اثنوغرافيا التواصل " 1964. ثم تلاه مؤلف " قارفينكال " (**Garfinkel**)" التحليل الحواري " 1967. ويضاف إلى هذين المؤلفين ما عقبهما من تطور الاتجاهات التداولية ونظريات التلفظ التي نشأت في حضن لسانيات النص.

و يجب التنويه - في نفس المنحى- بالجهود المبذولة في مجالات مماثلة، على نحو ما فعل " ميشال فوكو " (**M. Foucault**) عام 1969 حين انصبت جهوده على دراسة الأشكال التلفظية. وكذلك جهود "باختين"(**Bahktine**) الذي اهتم بأنواع الخطاب، وبالبعد الحواري لعملية التخاطب، حين أقر بأن كل نص يقع عند ملتقى مجموعة من النصوص الأخرى يعيد قراءتها ويؤكدها، ويحوّلها ويعمّقها في الوقت نفسه.

***تحديد المفهوم**

يتحدد مفهوم " تحليل الخطاب " (**Analyse du discours**) عند بعض الباحثين بكل ما يدور في صلب لسانيات النص من إشكالات، كالتركيب والاتساق والانسجام... ويعدّ

" هاريس " و" موريس شارول " (**M.Charolles**) من أبرز الباحثين الذين دافعوا عن هذا الطرح. وبالمقابل، نفى " موشلر "(**Moeschler**) أن تكون ماهية تحليل الخطاب معقدة ومتشابكة، لا يمكن حصرها في حدود إجراءات ضيقة. فالجمل ، مثلا كما صرّح موشلر، تتضمن عناصر لا يمكن فهمها خارج نطاق الجملة نفسها، ومن ثَمّ قد يستحيل فهم ماهية خطاب معيّن في حدود الجمل المكوّنة له. وعموما، قد تجمع غالبية الآراء على أن تحليل الخطاب لا يكاد يخرج عن تلك العلاقة القائمة بين النص والسياق، وقد تُستثنى من هذا التعريف تلك الأعمال التي تندرج ضمن الدراسات التداولية على نحو ما وجدناه في أعمال " ديكرو " (**O.Ducrot**) الذي درس الملفوظات بمعزل عن سياقاتها (**Enoncés décontextualisés**).

***تطور تحليل الخطاب**

يرى " فان ديك "(**vandijk**) أن عملية تحليل الخطاب تصبّ في إطار دراسة استخدام المتكلمين الحقيقيين استخداما فعليا للغة، في مواقف حقيقية. فتحليل الخطاب، إذن، يتمظهر لنا مجالا أو تخصصاً يهتم بدراسة اللغة كنشاط متجذر في سياق معيّن، ويكون هذا السياق منتجا لوحدات تركيبية للجملة (**unités transphrastiques**)، ويمكن أن ندرج في هذا المنحى استعمال اللغة لغايات اجتماعية، تعبيرية، مرجعية. وفي هذه الحالة يتحتم على محلل الخطاب الاستعانة بمقاربات متنوعة مثل" التحليل الحواري "(**L'analyse conversationnelle**)، " إثنوغرافيا التواصل "(**Ethnographie de lacommunication**)، علم اللغة الاجتماعي التفاعلي (**Sociolinguistique interactionnelle**).

لقد أصبح لمصطلح " تحليل الخطاب " – على حد تعبير " براون " (**Brown**)- استعمالات عديدة تشمل مجالات واسعة من الأنشطة فهو يستعمل، مثلا، للحديث عن أنشطة تقع على خط التماس بين دراسات مختلفة، كاللسانيات الاجتماعية، واللسانيات النفسية، واللسانيات الفلسفية واللسانيات الإحصائية. والمهتمون بمثل هذه الدراسات المختلفة يركزون بحثهم جميعا على جوانب شتى من الخطاب. فعلماء اللسانيات الاجتماعية، مثلا، يهتمون بخاصة ببنية التفاعل الاجتماعي – كما يتجلى في الحوار- كما أن دراساتهم الوصفية تؤكد ظواهر السياق الاجتماعي التي تعود بصفة خاصة إلى سُلّم التصنيفات الاجتماعية. إنهم يطلقون تعميماتهم من خلال أمثلة واقعية من اللغة المستعملة، ويبنون عملهم على عيّنات من الخطاب المنطوق المكتوب كتابة صوتية.

أما اهتمام علماء اللسانيات النفسية، فيتجّه إلى قضايا تتصل باللغة والإدراك. وهم يتميزون باستعمالهم منهجية دقيقة استنبطوها من علم النفس التجريبي، ويعالجون على أساسها مشكلات الإدراك من خلال نصوص قصيرة، أو سلسلة من الجمل المكتوبة.

ويهتم فلاسفة اللغة من جهتهم – واللسانيون الشكلانيون كذلك- بالعلاقات الدلالية القائمة بين أزواج من الجمل وخصائصها النظمية. كما يهتمون أيضا بالعلاقات بين الجمل والواقع، وذلك لمعرفة مدى قابلية الجمل لتكون أداة تقرير أحكام يمكن تقييمها بناءً على سُلّم من معايير الصدق والكذب. وهم يدرسون تلك العلاقات بين مجموعات من الجمل التي يستعملها متكلمون نموذجيون لمخاطبة متلقين نموذجيين، في سياقات نموذجية قليلة التحديد.

أما علماء اللسانيات الإحصائية ممن يعملون في هذا المجال، فإنهم يوجهون اهتمامهم إلى معالجة نماذج خطابية تفرض عليهم طبيعة منهجهم أن يختاروها من بين النصوص القصيرة المستعملة في سياقات محددة جدا.

ترى المنهاجية الأنجلوساكسونية أن الخطاب نشاط أساسي تفاعلي، ومن ثَمّ وجب، في نظرها، التمييز بين " تحليل الخطاب " و" التحليل الحواري ". ومن الذين تبنّوا هذا الطرح، نجد الباحث " لفنسون " (**S.C. Levenson**) الذي يميز بين تيارين متباينين: تحليل الخطاب القائم على تحليل لساني تراتبي للنصوص الحوارية، والتحليل الحواري الذي يصب في صلب الدراسات الأنثومنهاجية (**Enthomethodologie**). فالتيار الأول يمثّله لسانيون أمثال " سنكلير "(**J.M.C.H. Sinclair**) و" كولثارد "(**R.M.Coulthard**). تضاف إليه باكورة الأعمال التي قامت بها مدرسة جنيف.

يرى الباحث اللساني البريطاني (**M.A.K. Halliday**) أن الهدف الأسمى لمحلل الخطاب هو تبيان وتفسير العلاقة القائمة بين ضوابط اللغة ومتطلباتها الدلالية والغائية المعبَّر عنها بواسطة الخطاب. ويعارض " د. منقونو "(**D.Maingueneau**) هذا الطرح مبررا موقفه باستحالة اتخاذ " الغائية " منطلقا لدراسة مجال تحليل الخطاب الذي لا يمكن حصره في التحليل الاجتماعي أو السيكولوجي للسياق فحسب. لأن تحليل الخطاب – على حد تعبير منقونو – لا ينشغل، كموضوع، بدراسة التنظيم النصي في حد ذاته، ولا وضعية التواصل، ولكنه بالمقابل عليه أن يركز على المجال التلفظي الذي يربطه بمنظومة نصية، وبمجال اجتماعي محدد.

وفي هذا الإطار، فإن تحليل الخطاب تجمعه علاقات وطيدة بشتى أنواع الخطاب، بيد أن محلل الخطاب يهتم بنفس المدونة التي نجدها في علم الاجتماع اللغوي، وفي التحليل الحواري...فيتخذها دعائم ومنطلقات، مع مواقف مخالفة أثناء عملية المقاربة والتحليل. فإذا أخذنا على سبيل المثال الفحص الطبي كعيّنة للدراسة، فهذا يفرض علينا الاستعانة بأصول " الحوار " الذي هو موضوع الدراسات " السوسيولسانية "، إضافة إلى " الصيغ الحجاجية " التي هي موضوع اهتمام " البلاغة ". فكل هذه المعطيات تفيد عملية تحليل الخطاب وتشكل زوايا بحث ذات مناحٍ مختلفة من حيث المقاربة.

إن " نظرية تحليل الخطاب " تقف على عتبة العلوم الإنسانية، وفي مفترق طرقها، فهي تتميز بطابعها التحوّلي، فلا غرابة، إذن، أن نجد محللين للخطاب متعددي الاختصاصات، منهم علماء الاجتماع واللسانيون، والسيكولوجيون، بالإضافة إلى تلك الاختلافات التي تميز اتجاها عن آخر في نفس مجال التخصص. ففي الولايات المتحدة الأمريكية، يتأثر تحليل الخطاب بالدراسات الأنثروبولوجية بغضّ النظر عن ميول الدارسين والباحثين، مما يوحي بوجود علاقات حميمية بين فروع العلوم الاجتماعية وبعض مجالات تحليل الخطاب.

أما في الاتجاه الفرنكوفوني، فيحاول بعض الدارسين أن يفرّق بين "تحليل الخطاب" (**Analyse du discours**) و" تحليل خطاب "(**Analyse de discours**). ويقترح " جون ميشال أدام " (**J.M.Adam**) طريقة للتمييز بين التعريفين انطلاقا من معطيات مؤداها أن "تحليل الخطاب" عبارة عن نظرية عامة للتخطيب، في حين أن " تحليل خطاب " يعني دراسة الفروق القائمة بين الممارسات التخطيبية للبشر.

***بعض الأقطاب الكبرى لنظرية " تحليل الخطاب "**

إن امتداد نظرية " تحليل الخطاب " وتفرعها أدى إلى بروز مجالات التي تعتني بالخطاب بصفة عامة، وبين الاتجاهات والمدارس التي تهتم بتحليل الخطاب بصفة خاصة، الشيء الذي أدى إلى التمييز بين عدة أقطاب وتصنيفها على الشكل التالي:

- الأبحاث التي تهتم بدراسة حالات التواصل اللغوي، وبالتالي دراسة أنواع الخطابات.

- الأبحاث التي تدرس الوظائف الخطابية بناء على ظروف إنتاج المعلومات، أو على تموضعها الأيديولوجي.

- الأبحاث التي تضع، بالدرجة الأولى، التنظيم النصي أو الكشف عن علامات التلفظ.

إن تحليل الخطاب يتضمن دراسة القوالب اللغوية ومظاهر الانتظام في توزيعها من جهة، كما يقتضي مراعاة المبادئ العامة التي تقوم عليها عملية الفهم من جهة أخرى، تلك العملية التي يضع الناس بواسطتها معنى لما يسمعون ويقرأون. لقد أشار " صامويل باتلير" في مقدمة إحدى المذكرات إلى ضرورة مثل هذا الموقف التوفيقي، وكذلك إلى المخاطر التي يتضمنها، من خلال تحذير يجدر بمحللي الخطاب أن يضعوه نصب أعينهم، فقال:« يجب أن ندرس كل شيء في ذاته قدر الإمكان، وأن ندرسه كذلك من حيث علاقاته. فإذا حاولنا النظر إليه في ذاته مطلقا، وبقطع النظر عن علاقاته، فإننا سنجد أنفسنا شيئا فشيئا قد استنفذناه فهمًا

ودراسة. وإذا حاولنا النظر إليه من خلال علاقاته فقط، فسنكتشف أنه لا توجد زاوية في هذا الكون إلا وقد احتلّ مكانه منها».